نص اللاجئ غربة اللسان

بحث مقدم لمؤتمر "اللاجئون الفلسطينيون وحق العودة"

جامعة القدس المفتوحة

2012/5/13

الباحث

الدكتور: صخر مصطفى الشافعي

2012م

المقدمة:

النص الأدبي هو تمثيل لتجربة إنسانية، ورؤية للعالم مجسّدة على الــورق، ومرمـــوزٌ لهـــا بعلامات ضمن سياقات وأنظمة مختلفة "إن الإنسان يقرأ الكون المحيط به من خـــلال علامـــات يعبر عنه من خلال أنظمة مختلفة من العلامات سواء كانت لغة أو رسمًا أو رموزًا" (1). وهـــذه العلامات، التي من خلالها نتعرّف على جوانب الحياة وعلى جوانب نفوسنا، وما يحيط بنـــا مـــن أنظمة، لا بد لها من دلالات ترمز إليها وتعنيها، ولذا " فإن الافتراض الأول للسيميوطيقا هو أنه لا توجد دلالات بدون اختلاف كما لا يوجد "أعلى" بدون وجود "أسفل" و "ساخن" بدون "بـــارد" و "خير" بدون "شر" إن الدلالة ليست من صل الأشياء، فالأشياء لا تدل من تلقاء نفسها، لكن المعنى يتكون بواسطة ما يُعرف بالملاحظ القدير" (2).

ودلالة العلامة (مهما كان نوعها) تتولّد من القدرة العالية للمرسل، والتحليـــل العميـــق مـــن المرسل (القارئ النموذجي) لأن العلامة لا تستخدم في معناها الحقيقي فحسب، بل ــ غالبًـــا ــــ تستخدم في معناها المجازي، الذي يعبر عن دوالّه بلغة عُليا، وتعمل على مشاركة القـــارئ لـــه، للتعرّف على البنية العميقة للنص فأحيانًا "تُستخدم "الكلمة" استخدامًا مجازيًا فيتوسع قائلهـــا فـــي مدارها الدلالي قاصدًا منها "العلامة" كما يستخدم الشراع للدلالة على السفينة" (3).

هذه الأنظمة وهذه العلامات، لا تعمل إلا ضمن ثقافة، وفكر موحّد، لكي يكون بين أفراد هذه الثقافة، وهذا الفكر التواصل الدال، والإنتاجية العالية للنصوص المرسلة، والمتبادلة بينهم "فالثقافة نظام ديناميكي يفعل ويعمل باستمرار في تشكيل العناصر المكونة لهن فهي آلية فعالة ومنســـقة، من شأنها أن تحوّل الحيّز الذي تعمل فيه إلى حيّز منظم في مقابل الحيّز الذي لا تعمل فيه، الذي يظل بالتالي "فوضى" entropy وغير منظم" (4).

وهذا ما يجعل الاختلاف الألسني بين الأوساط الثقافية في المجتمعات المختلفة هـــي الميـــزة الغالبة، واختلاف الأنساق والسياقات مدعاة لاختلاف الفرد عن الآخر، وتبدأ عملية الجذب والشد بين الطرفين، ومن يجلب الآخر إلى حقله، هو من يكون قويًّا سياقيًا وعلاماتيًا، سواءٌ أكانت هذه العلامات لغوية، أم غير لغوية، ولذا فإن " اللغة هي القسم الاجتماعي للسان، وهي خارجة عـــن نطاق الفرد الذي بمفرده لا يتمكن من أن يصنعها وأن يغير فيها، ولا وجود للغة إلا بفضل ميثاق يعقد بين أفراد الجماعة الواحدة" (5).

من هذه النقطة انطلق الباحث في دراسة النص الروائي، الذي هو ترجمـــة لفكـــر الكاتـــب، ودراسة لجماعة من الأفراد يجمعهم نظام واحد، وقضية واحـــدة، ونجـــد الاشـــتباك اللســـاني، والثقافي، بكل معانيه الحادة والمتضادة، متجسدة بمستويات مختلفة، ولتوضيح هذه القضـــايا فـــي النص، استخدم المنهج السيميائي في التحليل، ووضع البحث تحت عناوين ثلاثة:

الأول: المفارقة اللغوية ودلالاتها.

الثاني: الثنائيات الضدية والتأويل.

الثالث: دلالة كلمة اللاجئ وتحوّلاتها.

ثم اختتم البحث بقائمة المصادر والمراجع.

المفارقة اللغوية ودلالاتها:

تقول نبيلة إبراهيم:" بدأ وعي الإنسان بالمفارقة مع قصة الخلق، قصة آدم وحواء في الجنة وهبوطهما منها، فلقد منعا من أن يأكلا من شجرة ما، أو بالأحرى من ثمارها والتحريم معناه: كبح لرغبة الإنسان في شيء ما، وإذا كانت الرغبة قد تركزت في أكل ثمرة تلك الشجرة، فإن هذا يعني أن الثمرة بدت لهما آنذاك جميلة وحلوة، فلما صور الأمر بالتحريم كان لا بد أن ينتقل فكر الإنسان الأول إلى أن الثمرة الجميلة الحلوة قبيحة وكريهة، وهذه هي المفارقة الأولى، وهي الخلط بين القبح والجمال" (6)

فالمفارقة إذن، هي المتناقضات التي تقابل بعضها بعضًا، أو التي يتوازى بعضها مع بعض، ولذا فكل ما يظهر لنا من أشياء، قد يكون تحتها ما يضادها، وقد يكون مخالفًا، لها، ولكن في الحالتين يكون الموضوع متكاملًا، أي يعطي صورة كاملة عن مقصد الكاتب، الذي يريد أن يفهمه القارئ، ومن هنا كانت المفارقة " أداة تشبيه للحياة في ثنائياتها المتعارضة وإعادة لإنتاج أحداثها عن طريق التحويل إلى نماذج متقابلة (إنسانيًا، ولغويًا، ووقائعيًا) وعرضها أو تمثيلها، المفارقة موضعة لمصير العالم، وعكس مباشر لمشاهدة الوجودية المتعارضة" (7).

وفي النص الذي بين أيدينا "نص اللاجئ" تقابلنا فيه المفارقة في أول فقرة فيه، حيث يقول الراوي:" لم يكتب أحد قصتهم حتى هذه اللحظة، هؤلاء الذين نستطيع اعتبارهم قبيلة فلسطينية مفقودة تم سبيها وإرسالها بعيدًا عن "الكرمل" و "مرج بن عامر" وتوزيعها على مدارس يهودية واسعة في "بغداد" و "البصرة" مدارس أعطاها الجميع، وكأنما بتوافق عجيب، اسم "التوراة" فكانت توراة لاجئين أولى .. وثانية .. وثالثة .. وهكذا، وليستيقظ أطفالهم فيما بعد، فإذا هم من "سكان التوراة". (8)، فالمفارقة، هنا، تكتسب حدتها من أن أصحاب هذه المدارس من اليهود ذهبوا هناك إلى "الكرمل" و "مرج بن عامر" شمال فلسطين؛ ليسكنوا في بيوت نفس الأشخاص الذين هُجّروا منها إلى جنوب العراق.

فالمفارقة تحققت من خلال المكان: شمال فلسطين × جنوب العراق. كأنه انتقال من النقيض إلى النقيض، في إشارة إلى التضاد بين الحالين. وكذلك تحققت المفارقة من خلال التبادل المكاني بين الشخصيات، حيث أُقتلع شعبٌ من أرضه التي يملكها تاريخيًّا، ليوضع في مكان بعيدٍ عنها، في الوقت الذي يذهب أفرادٌ آخرون ليغتصبوا تلك الأرض، مدّعين أنها ملكهم تاريخيًّا.

ومن خصائص المفارقة الأصيلة التي بدأت معها منذ القرن السادس عشر، و ما تضمنت من معنى، هو معنى السخرية، كما تقول نبيلة إبراهيم:" لا ننسى أن المفارقة بعد ذلك قد حققت أهم خصائصها، وهي أنها لم تترك القارئ إلا بعد أن رسمت على شفتيه ابتسامة هادئة تصحبها السخرية من الضحية" (9)، والضحية هنا المقصود بها المعنى الأدبي، وهنا نرى أن الضحية (اللاجئون) يمثلون الضحية بامتياز على المستوى الفني، وعلى المستوى الواقعي.

واستكمالًا للمفارقة السابقة، وتحقيقًا لمبدأ السخرية فيها، أن اللاجئ الذي يفترض أن ينعم بالحرية، على المستوى الحركة والتنقل على الأقل، يفقدها في تناسب عكسي مع الطرف الآخر(المحتلين)، إذ يوضع في معتقل يحيطه الأسلاك الشائكة في شبه (جيتو) ، والأسلاك الشائكة، ترمز هنا ، وفي أي موضع آخر، إلى القهر والقيد والمنع، والخوف، والتوجس، وتوقع الشر ... رغم أن الذين وضعهم في هذا المكان/المعتقل، هم من جلبوهم من شمال فلسطين، يقول الراوي:" كان لمعسكر "الاعتقال" هذا مرارته بالتأكيد، مراراتٌ أكبر من سنيّ آنذاك، إلا أنني تشرّبتها بطريقٍ غير مباشر في شبه الصمت الدائم الذي عاشه أهلي، الأصدقاء الأكبر سنًا، والذين مرّوا واعين، وكتبوا قصائد وقصصًا فيما بعد" (10).

وتعدت المفارقة حدود السخرية المبكية، إلى السخرية الفاجعة، بحيث أن اللاجئ الذي من المفترض أن يكون له معاملة خاصةً كونه يحمل هذه الصفة/اللاجئ، يتبرأ منها وكأنه يتبرأ من جرم يخشى العقاب عليه، يقول الراوي:"سيتعلل بعض اللاجئين فيما بعد، بالعروبة والهوية العربية، وسيكتفي بعضهم بإخفاء جريمة كونه "لاجئًا" بالغرق في اللهجة العراقية وطقوس شرب "العرق" العراقي الشهير، وسيوغل آخرون عميقًا في الأحياء العراقية، فيتزوجون ويغيّرون أزياءهم، وكلُّ ذلك طلبًا لقبول هذا العالم الغريب لهم" (11)، وربما في هذا النص يعطينا الراوي مبررات تجاهل الأمم المتحدة، والمنظمات الراعية للاجئين، وكل من له علاقة بهذا الموضوع، ولذا فالمفارقة:" رفض للمعنى الحرفي للكلام لصالح المعنى الآخر، أو ــ بالأحرى ــ المعنى الضد الذي لم يعبر عنه، وهي تهدف لا إلى أن تجعل الناس يصدقون بل إلى أن تجعلهم يعرفون، وهم لا يعرفون حقائق بقدر ما يعرفون احتمالات لحقائق، ومن شأن الاحتمالات أنها لا تدع للإنسان أرضًا صلبة يقف عليها، وهي سمة أساسية كذلك من سمات المفارقة" (12).

إذن، تقع المفارقة ،هنا، في كون الصفة التي أصبحت لصيقة بالفلسطيني، ومن المفترض أن تكون صمام الأمان له ولأسرته، أصبحت جريمة يهرب منها، ويا للمفارقة، بارتكاب جريمة أكبر، فهذه الضحية التي ألجأته إلى تغيير لهجته، وعاداته وتقاليده من أجل أن يُقبل في هذا العالم، بل إن المفارقة تتسع عندما يُصبح الجواز غير الفلسطيني، منطلقًا لهذا العالم، حيث يقول الراوي على لسان إحدى شخصياته (إبراهيم زعرور):" إذن، أنا بجوازي الأردني أعيش في نعمة من دون أن أدري"(13). وفي الحقيقة أن الراوي والشخصية (إبراهيم زعرور) هما في صفٍ واحدٍ من حيث المفارقة، لأنهما وقعا ضحية الطرف الأقوى/الواقع المرير، "فليس في المفارقة شخص ثانٍ يهاجم على نحو سافر، كما يحدث في كل من السخرية والنكتة، بل هناك موضوع يحتاج إلى التأمل وإلى الرثاء الممتزج بالضحك، هذا فضلًا عن أن المفارقة تتطلب من القارئ الإمعان الشديد في اللغة وحركتها، حتى يتم له إدراك المعنى في هدوء، فإذا حدث ضحك لدى القارئ في أثناء ذلك، فإنما هو ضحك هادئ يساعد على إطالة التأمُّل في الحياة"(14)، فالفلسطيني داخل وطنه ملاحق، ولاجئ، وشهيد، وجريح، وخارجه نفس المعاناة والآلام، إلى درجة أن يقبل بأن يكون (لاشيء) " أن تكون لا شيء لا يستطيع أحد نبذك لأنه لا يوجد فيك ما

يُنبذ، أو لا يستطيع أحد جرحك، تمامًا مثل ذلك القديس الهندي "برابو" الذي شف وشف حتى أصبح من المحال أن يُضرب بالسيف، لأن السيف كان يهسُّ، وهو يخترقه .. كأنما يخترق فضاء خاويًا"(15)، والمفارقة في أوضح صورها إذا كان ضحيتها غير واعٍ بها "وكلما ازداد عمى الضحية كانت المفارقة أشد وقعًا" (16).

فالمفارقة تقع هنا تحت عنوان: المفارقة الهزلية، حيث يتم وضع الضحية وصاحب المفارقة في سلة واحدة، مقابل الطرف الآخر منها، ففي الوقت الذي يهجّر الفلسطيني من أرضه، وأرض أجداده، ويُبعد عن مسقط رأسه، يأتي غريبٌ يسكن داره، ويفلح أرضه، ويتكلم بلغة غريبة، لم تعرفها الأرض، إلا فترة وجيزة من التاريخ، لا تساوي فترة مرور رجل من رصيف الشارع إلى الرصيف الآخر له.

وتبلغ المفارقة قمتها، عندما يمتنع الفلسطيني عن تصوير معاناته، بل إنه يتنكّر لكونه لاجئًا، :" لم يكن المحرّم كما تعلمّت في ما بعد نطق اللفظ "الفلسطيني" الذي يرميك بعيدًا ويفردك وسط هذا العالم الغريب بل الكشف عن هويتك كلاجئ وهذا هو السبب ، كما أعتقد، الذي جعل الكاتب والشاعر الفلسطيني يتجنب كتابة أو نطق ما يشي بأنه "لاجئ" في هذا المكان من العالم، ومن هنا سقط وعيه الكتابي واللفظي وكل ما هو خاص ومتميز" (17).

وتزداد المفارقة حدّة، عندما يقوم غير الفلسطيني (لا أقول العربي بل الأجنبي) بالكتابة عن هموم ومشاكل الفلسطيني في مخيمات الشتات، حيث يقول الراوي:" والمفارقة هي أن من سيعرّفني بمصير "خربة خزعة" أو قرية "الدوايمة" التي أحرق البلغار والبولونيون والروس أهلها في مغارة كبيرة ليس ثقافتي الفلسطينية التي تجهل كل هذا، بل كتّاب إسرائيليون، ومن سيعرّفني في ما بعد بجمال الفدائي الفلسطيني ليس الشاعر والروائي الفلسطيني، بل الفرنسي "جان جينيه" الذي قضى أربع ساعات في مخيم شاتيلا عقب المذبحة، فقط ليعرف ما هو الفلسطيني في الوقت الذي كان فيه شعراء وكتاب فلسطينيون ينشرون هذا بلا معنى إلى جانب مقالة "جينيه" في مجلة الكرمل" (18).

فالمفارقات في الرواية حدثت على مستويات متعددة، منها ما وقع من الضحية/اللاجئ الذي ناقض فعله قوله، من خلال الحديث عن العموميات/قضية فلسطين المقدسة، ونسي واقعه الأليم/التفاصيل اليومية، التي تشكل حافزًا ودافعًا له للصمود والاستمرارية.

ومن هذه المفارقات، حديث غير الفلسطيني/جان جينيه، عن واقع المخيمات/ اللاجئين، وبطولاتهم، في الوقت الذي يشتغل فيه الكاتب الفلسطيني في اللامعنى، وتزداد المفارقة حدة، عندما يوضع كلام (جينيه) بجانب كلامهم، بل إن الفارقة موجودة منذ بدء حياة اللاجئين التي ظهرت في بعض التعبيرات والمواقف، من مثل قول صاحب الحمار في شتم حماره:" امشِ وجهك مثل وجه اللاجئ" (19) والمفارقة فيها أن الفلسطيني هو الذي يقوم بذلك العمل تجاه أخيه الفلسطيني، كما اعتبرت المرأة الفلسطينية أن صفة اللاجئ عارًا لا ينفك عنه بقولها:" فتاة جميلة ومؤدبة، لكن يا للخسارة .. هي لاجئة" (20)، وتمتد هذه المفارقة في وضع الفلسطيني اللاجئ

في العراق مكان اليهود الذين ذهبوا ليحلّوا محلهم في فلسطين، ويكون اسم المدارس التي يقطنون فيها "مدارس التوراة"، ويُحاطون بأسلاك تمنعهم من حرية التنقُّل، ونختم هذا الجزء من البحث بقول العجوز الفلسطيني الذي طُرد من الكرمل:" ليتنا متنا هناك".

مما سبق يتبين لنا "أن بيئة الثنائيات في النص أساس المفارقة والتناقض اللذين يطبعان سير عالم الناس، منها ما كان مبنيًّا على تقابل التناقض وهذا يعني أن أحد طرفيها يناقض الآخر، ومنها ما كان مبنيًّا على تقابل الموازاة، وهذا يعني أن المعادلين في الثنائية يجمعها شيء واحد، عبره تتم الموازاة بينها، هذه الموازاة تنتهي إلى جعل كل واحد من المعادلين يمتاز بصفة لا يمتاز بها الآخر، ومن هنا تنشأ المفارقة التي تجعل منها ثنائية تنسجم مع باقي الثنائيات الأخرى" (21).

من هذه النقطة يمكننا أن ننطلق إلى الجزء الآخر الذي يكمّل المفارقة، وهو الثنائيات الضدية.

الثنائيات الضدية والتأويل:

ما من شك أن الأشياء تتضح لنا دلالتها بضدها، سواءٌ أكان قبحًا أم حسنًا، وكما قال شاعرنا القديم: والضد يظهر حسنه الضدُّ، وكما يقول المثل العربي: وبضدها تتميّز الأشياء. والحياة من أساسها مبنية على التضاد من خلق آدم ــ عليه الصلاة والسلام ــ وحواء زوجه، وهذا التضاد يتحقق من خلال التقابل أو التوازي، وفي الحالين يكمل أحدهما الآخر، والعمل الأدبي والحياة يسيران جنبًا إلى جنب في توضيح دلالة الأشياء وتوكيدها، من خلال الكشف عن العلاقات بين الأشياء، من خلال العلامات التي تحملها كل دلالة، وهذه الثنائيات بتأويلها تتضح البينة العميقة للنص، وتتجلي لنا المعاني المخبوءة تحت الألفاظ الظاهرة. ولذا" تطرح السيميوطيقا عدة مستويات للدلالة ، فمثلًا المستوى التجريدي العميق يولد المستويات السطحية، وعلى هذا فإن النص يجب أن يدرس في هذه المستويات المختلفة العمق وليس على المستوى السطحي كما يفعل الألسنيون التقليديون"(22).

وتقابلنا الثنائية الأولى: شمال فلسطين × جنوب العراق:

فشمال فلسطين المقصودة في النص، هو الكرمل ومرج ابن عامر، ويتضح من خلال المنطقتين الجغرافيتين دلالة الاتساع والخصب التي تميز هاتين المنطقتين، وكذلك طبيعة الناس القادمين من هناك (القرويين/الفلاحين)، بينما يعطينا الطرف المقابل (جنوب العراق/البصرة) طبيعة المنطقة المهجّر إليها اللاجئين، وهي ذات طبيعة تجارية (كما يقول الراوي):"كانت البصرة آنذاك تعني عدة أشياء: شركة النفط وشركة التمور وشركة الموانئ. وهي مؤسسات ثلاث تعني بالنسبة للفقراء فرص العمل والثراء" (23) . وواضح من الفقرة التناقض بين

البصرة/جنوب العراق، والكرمل ومرج بن عامر/شمال فلسطين، ويعزز هذا التناقض، ما أحدثه العراقيون بين اللاجئين عندما فصلوا بين هؤلاء الفقراء، وبين الأغنياء منهم، في رسالة واضحة إلى الفرق بين أن تكون لاجئًا وفقيرًا، وبين أن تكون لاجئًا وغنيًّا، حيث يقول الراوي:" كان التجميع عشوائيًا بحيث تجاورت طبقتان: طبقة مالكي الأراضي، وهم شيوخ عائلات بدوية الأصل وباشوات من العصر العثماني، وطبقة الفلاحين في مكان واحد. إلا أن هذا "الخطأ" تم إصلاحه فورًا، إذ تقدم أقطاب العائلات بالتماس، وتم تبنيه من قبل الحكومة العراقية، طلبوا فيه إعطائهم وضعا خاصًا، إذ ليس من المعقول حسب تعبيرهم أن يُحشروا مع "فلاحيهم" في مكان واحد، واستجابت الحكومة العراقية لهذا الالتماس فأفردت لهذه العائلات "الكريمة" أو المقدسة مساكن خاصة وأعطتها الجنسية العراقية في ما بعد، وبعضها حظي بالجنسية الأردنية واللبنانية .. وهكذا" (24). ويقابل الجزء الأخير من النص، وهو إعطاء هؤلاء الأغنياء الجنسيات المختلفة، في الوقت الذي لا يُسمح للفلاح/اللاجئ بحرية التنقل إلا بعد ثورة 1958م، وهذه بحد ذاتها ثنائية حادة متضادة كل التضاد، ومفرقة بين أبناء الشعب الواحد، ومؤكدة للصفة الدائمة التي ذكرها الراوي في أكثر من موضع في الرواية، وهي أنهم قرويون يلخصون حكاية فلسطين.

الثنائية الثانية: الكاتب الفلسطيني × جان جينيه:

الذي طرح هذه الثنائية، هو إغفال الكاتب الفلسطيني لقضيته الأساس، وحياته اليومية وتفصيلاتها، رغم أنه يعيشها يوميًا ومنذ سنوات طويلة، في الوقت الذي يكتب كاتبٌ غير عربي عن الفلسطيني وفدائيته، رغم أنه عايش الوضع الفلسطيني ساعات معدودة لا تتجاوز الأربع ساعات، هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن مما يعمق هذه الثنائية هو وجود كلام هذا الكاتب/جينيه الذي يتحدث عن الهم الفلسطيني، بجانب كلام الكاتب الفلسطيني الذي يقول أي كلام، ويقول هذرًا بلا معنى، يقول الراوي:" من سيعرّفني في ما بعد بجمال الفدائي الفلسطيني ليس الشاعر والروائي الفلسطيني، بل الفرنسي "جان جينيه" الذي قضى أربع ساعات في مخيم شاتيلا عقب المذبحة، فقط ليعرف ما هو الفلسطيني في الوقت الذي كان فيه شعراءٌ وكتابٌ فلسطينيون ينشرون هذرًا بلا معنى إلى جانب مقالة "جينيه" في مجلة الكرمل"(25).

هذه الثنائية تتعمق على أكثر من مستوىً، المستوى الأول: الشخصية، فالكاتب الفلسطيني مقابل الكاتب الفرنسي/غير العربي، والمستوى الثاني: صاحب القضية/الفلسطيني، وليس صاحبًا للقضية/ الفرنسي، والمستوى الثالث: الزمن، فالفلسطيني داخل قضيته منذ بدايتها وهو صاحبها، أما الفرنسي فلم يتعرف على القضية إلا مدة أربع ساعات.

فهذه المستويات للثنائية الضدية: الكاتب الفلسطيني/ الكاتب الفرنسي، جعلت من المأساة مضاعفة، وعميقة، ومؤلمة بل إن هذه الثنائية تتأكد عندما يدخل الراوي الأردن بعد رحيله من الكويت، إذ وجد أن الاهتمام بالقضية الفلسطينية لا يتعدى الاحتفالات والأسابيع الثقافية.

ومن المهم التركيز على أن الكاتب الفرنسي لم يدخل إلا مكانًا واحدًا من أماكن اللجوء (مخيم شاتيلا) أي إنه لم يرَ إلا جزءًا بسيطًا من معاناة الفلسطيني اللاجئ، بينما الكاتب الفلسطيني دخل، أو على الأقل، يعرف كل أماكن اللجوء (ما عدا اللاجئين الموجودين في العراق)، ويعرف معاناة اللاجئين، ويعرف قصص البطولة والفداء لهذا الفلسطيني اللاجئ، وهو الأقدر على تصوير هذه البطولة والفدائية، ويفسر الراوي ذلك بقوله:" في تلك الأيام احتشد بشرٌ لم يعرفوا من يقودهم .. وإلى أين .. حتى هذه اللحظة. واحتشد كتّابٌ وشعراءٌ يدورون في دائرة ضوء الزعيم السياسي وفي ظله بعيدًا عن الملموس الفلسطيني؛ أعني بعيدًا عن المضمون الإنساني للتجربة الفلسطينية."(26). ويوضح أكثر هذه المسألة، في موضع آخر من الرواية بقوله:" أذكر أن أحدهم، وكان شاعرًا هذه المرة يدعى ... ، تعرض للإخراج من دائرة الضوء هذه، فظل عاطلًا عن كل شيء، حتى عن مضغ الورق، لاعتقاده المضحك أن وجوده خارج هذه الدائرة يساوي العدم، وفي ظل هذا الاعتقاد عاش متنقلًا بين الكويت وبغداد يتحين الفرص للعودة .. حتى عاد .. وعاد إلى مضغ الورق"(27).

إذن ما يحرّك الكاتب الفلسطيني، أو يوجه رأيه هو وجوده في دائرة الضوء، أي دائرة الاهتمام، المهم أن يكون بجانب الزعيم السياسي (بحسب تعبير الراوي)، بينما الكاتب الفرنسي فإنه لا يطمح لشيء، ولا يتحرك ضمن دائرة معينة، وهذا هو الوضع المقلوب، فالفلسطيني من المفترض أن يحركه حبه لوطنه، وأن يلهمه للكتابة واقعه الملموس والمعاش، وأن يكون سفيرًا لبلده، وأن يقدر على توصيل معاناة اللاجئين، في أي مكان، وأن يربأ بنفسه عن النزاعات، والخلافات، وأن يكون للكل الفلسطيني، ليس لفئة أو جهة تحركه كفيما شاءت.

الثنائية الثالثة: قرى فلسطين المتفرقة × دولة المحتل المنظمة:

من الوقائع التي ركز الراوي على ذكرها، هي وقائع ذاك الفلاح، الذي يعيش في قرى متفرقة، بعيدة عن بعضها لا يربط بينها شيء، ولو كانت كأقل بلدية، بينما المحتل المغتصب، جاء بتنظيمه ونظامه لكي يُنشئ من لا شيء دولة لها أرض وشعب وقانون، يقول الراوي:" حكاية هؤلاء القرويين هي حكاية فلسطين كلها، حكاية مجتمع مجزّأ لا تنظمه دولة، ولا تقوم بشؤونه أبسط البلديات. وكان سقوط هذا المجتمع في براثن احتلال دولي منظّم يبني دولته شيئًا فشيئًا أمرًا منطقيًا، ولا يحتاج تفسيره إلى أطنان من الحبر الذي سُفح بحثًا عن الذين خانوا والذين باعوا أو الجيوش المسلوبة الإرادة، وأسطورة الافتقار إلى السلاح، وكل هذا الهراء. إن مجتمعًا قرويًا مثل المجتمع الفلسطيني لم يعرف طعمًا للدولة منذ أقدم عصوره، وعاش في تجمعات ضئيلة بين المرتفعات والهضاب، ضيقة تربطها أما روابط القرية أو العشيرة، كان يحمل مقومات سقوطه أما هذه الهجمة الدولية أو الحرب العالمية التي تخاض على رقعة ضيقة على حد تعبير كاتب أمريكي. فتساقطت قراهُ قريةً قريةً، ومنفردة لا تكاد أحداها تشعر بالأخرى"(28). فالثنائية تأتي على مستويات متعددة، **أولًا:** التفرق× التجمع، فالمجتمع الفلسطيني متفرق في تجمعات لا رابط بينها، رغم أنه يعيش على أرضٍ واحدة، فكل تجمع يتحكم فيه النظام

القروي أن العشائري، بينما القادمين الجدد لهذه الأرض، مجتمع مشتت، لكن يجمعه هدف واحد، وتجمع منظم، رغم أنه جاء من أراضٍ مختلفة، من كل أصـقاع الأرض، إلا أن التجمـع علـى الهدف انتصر على التجمع على الأرض دون هدف محدد. **وثانيًا:** الحق × الباطل: فالفلسـطيني يملك الحق، لكن لم يجد من ينصره، بل اختلقوا له الأعذار التي أثبـت التـاريخ زيفهـا، بينمـا المغتصب صاحب باطل، وليس لديه أي دليل، أو حجه تؤيد ما يريده، ورغم ذلك وجـد القـوى العالمية التي تسانده، برغم علم هذه القوى ببطلان قضيته، وعلمهم بأن ما يقومون به لم يمر ولن يمر في التاريخ مثله، وهو إحلال شعب مكان شعب آخر، وليس ذلك فحسب بل يدعى أن له حقًّا تاريخيًا في الأرض، في محاولة مكشوفة لجر العالم معه. **وثالثًا:** خذلان العربـي للفلسـطيني × نصر العالم للمغتصب: فهذا مما يزيد الثنائية حدة، إذ يتبرأ العربي من مساعدة الفلسطيني الـذي هُجّر من أرضه قسرًا، بل ساعدوا في تهجيره من خلال تحميلهم في شاحناتهم وأخـذهم خـارج فلسطين حين انسحبوا منها، ومنهم من اتصل بالمغتصبين لعقد صفقة يتم من خلالها توطين مئات الآلاف من اللاجئين في دولته مقابل بعض المطالب/ المطامع، بينما يقوم العالم (الحر) بالمساعدة في ترسيخ الاحتلال وتوطين المغتصب بشكل أممي من خلال القرارات الظالمة والنافيـة للحـق الفلسطيني العربي.

دلالة كلمة (اللاجئ) وتحوّلاتها:

سنقصر الحديث في هذا الجزء من البحث على التحوّل اللساني/ العلامي، لكلمـة اللاجـئ، سواءٌ على مستوى المصطلح، أم على مستوى الصفة الملازمة له.

ولا بد من العلم بأن تحوّل العلامة، يكون مصاحبًا لموقف أو حدث، وكل تحوّل للعلامة هو بمثابة إضافة دلالية جديدة، تعمّق المعنى وتشعّبه، بحيث يصبح غنيًّا بالـدلالات المتولّـدة مـن السياقات المختلفة التي يندرج فيها.

فدلالة كلمة "اللاجئ" هو ذاك الإنسان الذي هُجّر من بلده عنوةً إلى بلدٍ آخر، لا يدري لماذا؟ أو كيف؟ أو متى حدث ذلك.

وأول مصطلح أطلق على هؤلاء هو مصطلح (اللاجئـون) كمـا يقـول الـراوي:" جُمِـع اللاجئون، وهذا اسمهم الرسمي والشعبي في الأربعينات والخمسينات، في مدارس يهودية ضخمة أشهرها مدرسة خضوري ... " (29)

فهذه الدلالة نجدها مصاحبة لمصطلح (القبيلة) ومصطلح (السبي) لتدل بذلك علـى العمـق التاريخي والتضادي بين الماضي والحاضر، الماضي الذي تم فيـه سـبي اليهـود إلـى بابـل، والحاضر الذي تم فيه سبي هذه القبيلة/ الفلسطينية، لنفس البلد:" هؤلاء نستطيع اعتبـارهم **قبيلـة** فلسطينية مفقودة تم **سبيها** وإرسالها بعيدًا عن "الكرمل" و"مرج بن عامر" وتوزيعها على مدارس يهودية واسعة في "بغداد" و "البصرة" مدارس أعطاها الجميع، وكأنمـا بتوافـق عجيـب، اسـم

"التوراة" فكانت هناك توراة لاجئين أولى .. وثانية .. وثالثة .. وهكذا، وليستيقظ أطفالهم فيما بعد، فإذا هن من "سكان التوراة"" (30).

هذه القضية (اللاجئون) تحوّلت إلى دلالة/ الأداة، التي يحركها السياسي بحسب الظرف السياسي الذي يمر فيه:" الأمر بالطبع ليس أمر المناورات السياسية ولا الشتات المؤلم الذي فُرض على الفلسطينيين ومنعهم من التنقل والتجوال فقط (لم يحصل الفلسطينيون في العراق على حق السفر بوثيقة سفر إلا بعد العام 1958) بل هو أمر ثقافة لم تنظر إلى الفلسطيني إلا **كأداة** في خدمة "السياسي" وأسقطت كل جوانب تجربته "الإنسانية" من حسابها" (31).

وهذا اللاجئ الذي اتخذه السياسي أداة لأغراضه ومناوراته السياسية، يصفه الراوي بالقروي، في مقابل المغتصب القادم من وراء البحار، أو في مقابل الأغنياء من أهل فلسطين، واعتبر الراوي أن حكاية هذا القروي هي حكاية فلسطين، يقول الراوي:" حكاية هؤلاء **القرويين** هي حكاية فلسطين كلها، حكاية مجتمع مجزّأ لا تنظمه دولة، ولا تقوم بشؤونه أبسط البلديات"(32). جاءت دلالة اللاجئ/القروي، في سياق المقارنة بينه وبين المحتل القادم من كل مكان من العالم، وهذا القروي الذي يعيش من فلاحة أرضه، ويفصله عن جاره ، بمقدار ما يفصل فدائي يدافع عن وطنه، وخائنٍ له.

ومن جهة أخرى، فإن وصف اللاجئ بالقروي، تدل على سذاجته وطيبته، التي اشتهر بها، فكان سهلًا على المغتصب أن يطرده منها، وعلى أبناء جلدته أن يخونوه ويتآمروا عليه، وهذا الذي أوصله إلى جزء من أرض فلسطين/ جنين وما يجاورها، وهناك تُولد كلمة (اللاجئ).

ويستمر الراوي في تحديد مسار تحوّل دلالة كلمة اللاجئ، لتصبح صفة لصيقة بالاحتقار والازدراء، فيقول:" عبثٌ ألسني وجغرافي، يجرّد الإنسان من هويته، ويُعطي المفهوم الجغرافي هويةً، وسيتردد في هذه المنطقة اسم "اللاجئ" طويلًا كصفة محقّرة وتعبيرًا عن **الازدراء والاستهانة**، فيقول أحدهم شاتمًا حماره:" امشِ .. وجهك مثل وجه اللاجئ" وتقول امرأة فلسطينية تصف فتاة "هي فتاة جميلة ومؤدبة .. ولكن يا للخسارة .. هي لاجئة" وستبدي شاعرة نابلس فدوى طوقان في ما بعد تعاطفها مع "اللاجئة" المسكينة لا مع الفلسطينية التي تشترك معها في الهوية" (33).

بل إن لفظة (اللاجئ) ودلالتها تنقلها من الجنسية الفلسطينية إلى جنسية أخرى، وتأتي هذه الدلالة من الفلسطيني نفسه، وذلك بعد اجتياح العراق للكويت ورحيل الفلسطينيين المقيمين في الكويت إلى الأردن، فيصفونهم **بالكويتيين**، يقول الراوي:" بالضبط كما سيحدث بعد سنوات طويلة حين يطلق فلسطينيو الأردن على الفلسطينيين المشردين من الكويت لقب "الكويتيين" لإبقائهم خارج السور، وإحاطتهم بما يكفي من الكراهية والنبذ والمجهول يبرر لهن اقتراح شتى التخيلات عنهم، وسيكون لهذه المفارقة الاجتماعية تبعاتها السياسية" (34).

عند هذه النقطة تتأكد صفة اللاجئ/ الفلاح، في مقابل اللاجئ/ المدني/ الغني، وقد أكد هذا العداء، والفصل بين اللاجئين من حيث النوع، من قول أحد الفلسطينيين من أصحاب المنظمات:"

لن يحررها إلا واحد يخرج من المخيم أتخمه العدس" (35)، ومعنى ذلك أن الفقراء/ الفلاحين هم اللاجئون الحقيقيون، ورمز بالعدس، كدلالة على هؤلاء الصنف من الفلسطينيين، وربما ما حدث في البصرة من عزل لهؤلاء اللاجئين، عن أغنياء اللاجئين في السكن، والتفريق في المعاملة، ما يؤكد هذه الصفة.

وما تحوّل اسم الدائرة التي ترعى شؤون اللاجئين إلا دلالة على نوع التعامل الذي حظي به اللاجئون، حيث كانت اسم الدائرة في بداية اللجوء هو (دائرة شؤون اللاجئين) إلى (دائرة شؤون الفلسطينيين)، هذا له دلالة واضحة على اعتـراف صـريح بـأن هـذا الإنسـان القـادم مـن الغرب/فلسطين، ليس إلا فلسطينيًا جاء بمحض إرادته، وليس لاجئًا له حقوق اللاجئـين فـي أي مكان في هذا العالم، ونفيًا للصفة التي جاء بها إلى العراق، وهي كونه مطرودًا من بلده إلى بلـدٍ آخر، ونفيًا لمسؤوليته عن هؤلاء الذين جلبوهم معهم في شاحنات عندما انسحبوا من جنين فـي العام 1949م، حيث يقول الراوي:" ولم تُستبدل الحكومة العراقية لافتة "**شـؤون الفلسـطينيين**" بلافتة "شؤون اللاجئين" إلا في السنوات الأخيرة، أما قبل ذلك، في الخمسينات والستينات، ومنـذ أن حُشروا في شاحنات الجيش العراقي المنسحب من منطقة "جنـين" (1949) وأرسـلوا إلـى العراق فقد ألصقت بهم صفة اللاجئين "المجردة"" (36). ويتكرر هذه الكلام في الصفحة السـابعة والثلاثين حيث يقول الراوي:" صحونا على عالم "ينبذنا" فوجدنا منظمات تنتشلنا من هوّة اللاجئ وترفعنا إلى ربوة الإنسان وبإغراء أشد جعل حتى العراقيين يستبدلون تعبير "إخواننا الفلسطينيين" بتعبير "اللاجئين" (37)، فلا يدري الراوي، هل الأفضل أن يقولوا لهم فلسـطينيين، أم الأفضـل لاجئين.

ويؤكد الراوي على صفة (السبي) مرةً أخرى عندما يتعرّض لأماكن اللجوء التي يتواجد بها اللاجئون، مندهشاً من إغفال ذكر اللاجئين في العراق، حتى إن الفلسطينيين أنفسهم لا يـذكرون ذلك:" كل الإحصاءات التي تُنشر عادةً عن عدد الفلسطينيين، بما فيها إحصاءات منظمة التحرير، لا يرد فيها ذكر الفلسطينيين في العراق، ولا يعرف الكثير من الباحثين الفلسـطينيين أن هنـاك وجودًا لفلسطينيين في العراق منذ **السبي الأول**" (38).

ومن المصطلحات التي ذكرها الراوي كمقابل لمصطلح اللاجئ، هو (الكائنات البشرية)، في سياق تأكيد الصفة الآدمية لهؤلاء اللاجئين الذين يهربون الآن مـن ضـرب النـار، والقصـف المدفعي، والذين لا يجدون ما يغطون فيه أجسادهم:" هذه القروية حرصت على جمع ما تسـاقط منه ووضعته جانبًا لتأتي من ثم صاحبة البستان فتأخذه من دون أن تكلف نفسها الالتفات إلى شبه **الكائنات البشرية** التي تلتحف السماء في بستانها" (39) .

أما أكثر المصطلحات قتامة، وسوداوية هو المصطلح (اللامعنى)، و(لا شيء)، أما اللامعنى فهو المصطلح الذي أطلقه الراوي في بداية التهجير مع خروج والده من الكرمل، فيقول:" هنا في هذا المكان ولدت كلمة "اللاجئ"، وهنا خطرت للفلسطيني الذي هو أبي، وقد طُـرد بـالقوة مـن قريته على السفح الجنوبي للكرمل وبعيدًا عن قبور أجداده وبساتينهم، فكرة أن يرحل عـن هـذا

الجحيم، لقد أخرجه "الهاغاناه" من معناه، ولم تفعل "جنين" سوى أن تلصق به **اللامعنى** نفسه: اللاجئ" (40). وهذا المصطلح (اللامعنى) يتكرر في نفس الصفحة.

أما مصطلح اللاشيء، فهذا ما أطلقه رجال المطار على الراوي وكان يعني بأنه بلا جنسية، فيقول الراوي:" أن تكون لا "شيء" أفضل أحيانًا من أن تكون "شيئًا" مقررًا سلفًا، في حالة **اللا "شيء"** لا يستطيع أحد نبذك لأنه لا يوجد فيك ما يُنبذ" (41).

المصطلحان السابقان: اللامعنى واللاشيء، ينفيان عن اللاجئ أنه شيء أو معنى، ينفيان وجوده كإنسان، كما ذكر الراوي في موطن آخر (شبه الكائنات البشرية)، ولذا اعتبر الراوي، بحسب ما عايشه من تجارب وقابل من شخصيات، أن اللاجئ يقابل مصطلح (مجرم) وخاصة عند مقارنته بمصطلح (المنفي) فيقول:" النفي درجة أفضل من اللجوء؛ لأن المنفي لا يشعر بالمهانة، إن اختلاف المعنى في ذهنه يظل محددًا بمنظومة ألفاظ لغته، فهي التي تحدد له بحقلها الدلالي والصوتي معاني الأشياء واختلافها، أما اللاجئ فإن ما يتسرب إلى نفسه ولغته من سيول لشبيه بأخاديد تثلم الشخصية المتعبة والروح المثقلة **بجريمة** تود التخلص منها اسمها "اللجوء"" (42). وسبق الراوي أن ذكر هذا المصطلح الذي أُلصق بكلمة اللاجئ في الصفحة الخامسة عشرة، حيث يقول:" ولكن الأخطر هو جعله يحس أن مجرد كونه "غريبًا" لهو جريمة يجب أن يخفيها، وكان الأمر أقسى بالنسبة لنا، لأن الجريمة التي كان علينا أن نخفيها هي أننا من "اللاجئين" أي أمرًا نرتكبه يحكم وجودنا كله: وجود اللاجئ الذي أُعطي لنا بالاقتلاع من البيت والأرض أولًا، ثم بتسميتنا من قبل هذا العالم الغريب. لكن هذه اللفظة ليست شتيمة فقط، بل هي مما يحط وينتقص من قدر الإنسان، وعليه أن يتقبلها، أي يقبل بأن قدره منتقص ومنحط" (43)

ومن الصفات التي تدعو للعجب والدهشة، تشبيه اللاجئين بالقردة التي لها ذيول، وكأن من أطلق هذه الشائعة يعتقد أن اليهود ما زالوا يسكنون في مدارس التوراة، أو أن اليهود أنفسهم هم الذين أطلقوها، ليدفعوا عن أنفسهم هذه الصفة، في محاولة لتطبيق المثل الذي يقول (خير وسيلة للدفاع الهجوم) ، فيقول الراوي:" كان الكل على الجانبين يتلهف لمعرفة ما هو هذا "اللاجئ" الفلسطيني وأي كائن هو، وما شكله، وأتذكر كيف كان الطلبة الأطول قامة يمدون أعناقهم فوق الحشد ليتطلعوا إلى الصغار اللاجئين وهم يسيرون في الممر الضيق، كانت الإشاعة المنتشرة في البصرة أن **للاجئين ذيول قردة!**" (44).

في الصفحة العاشرة من الرواية، ترد مصطلحات كثيرة، وفي سياقات مختلفة كلها تعني اللاجئ، فالخارجية الإسرائيلية قالت عنهم أنهم سيصبحون أشباه بشر وحثالة مجتمع، أما الأمريكيين فقد وصفتهم بالمجموعة المتذمرة .. وإنها تشكل بؤرة خصبة للدعاية الشيوعية، أما نوري السعيد فإنه يتأثر بهذا التقرير الأمريكي ويصف اللاجئين بالسلاح المدمر في الشرق الأوسط وقد تستغلهم الشيوعية.

مما سبق يتبين لنا المصطلحات التي أطلقها الراوي على اللاجئ، في سياقات متعددة، وفي سياقات أخرى كان يطلق صفات على هذا اللاجئ، وفي الحالتين كان الراوي يوضح أكثر حياة اللاجئين، والمعاناة التي قاسونها.

تنوع دلالة كلمة اللاجئ، تبين التحولات التي حدثت له خلال مسيرته ، وما زالت تحدث، ولا يقوم الراوي بإطلاق المصطلح، إلا بعد أن يضعه في الموقف الروائي، مفعمًا بالرموز التي تصاحبه، والتي من خلالها تتضح صورته. من ذلك مصطلح القروي، الذي صاحبته الرموز: الأرض، والبستان، وعدم التنظيم، بجانب الرموز الوصفية لهذا القروي، من مثل الازدراء والاحتقار، والاستهانة به، إلى غير ذلك.

بينما الرموز التي صاحبت المصطلح اللامعنى، واللاشيء، فهي : بلا شيء، اللاجئ، بلا جنسية، حيث ينفون عن اللاجئ موطنه، ويصبح بلا وطن، وأكثر المصطلحات إيلامًا، وجرحًا، مصطلح (مجرم) حيث تظهر في موقف التعارض مع مواطني البلد المضيف/العراق، فأصبح مجرد ذكر كلمة اللاجئ توحي لهم بالجرم الذي يحملونه، وهو أنهم لاجئون، بل وصل الأمر بهم إلى تغيير لهجتهم وعاداتهم وتقاليدهم والانخراط في المجتمع العراقي، لكي يُمنحوا الجنسية العراقية، أو أي جنسية يستطيعون من خلالها التنقل عبر العالم دون إعاقة أو حواجز.

لم يكن أمام اللاجئ إلا أن يتكيّف مع كل وضع جديد يجد نفسه مضطرا للتعامل معه، حتى لو كان سجنًا، كما حدث للراوي في قبرص، الذي وجد الفرصة سانحة له ليكتب ويقرأ، ويصور تجربته التي يحياها، بل إن إحساسه بمعاناة الآخرين يخفف إلى درجة كبيرة ما يعانيه، مثلما حدث للراوي عندما كان متوجهًا لصوفيا فوجد اللاجئ الإفريقي الموجود في المطار منذ شهور، بسبب أنه لاجئ.

الخاتمة:

من استقرائنا للنص، يتبين لنا الغربة المضاعفة التي عاشها اللاجئ، ومدى التنافر الحادث بينه وبين محيطه، منذ أن وطأت قدماه أرض اللجوء، فالمساكن التي أودعوا فيها تنكأ في قلوبهم جراحات ما زالت تنزف، فاسم هذه المساكن (مدارس التوراة) إذ كانت هذه المدارس لليهود العراقيين، وكأنما توافق الجميع على هذا الوضع المستفز، ثم معاناة أطفال اللاجئين في الحصول على التعليم، ولحظات اللعب، التي كانت بمثابة تحدي لهذا الوضع المرير، بل ينافح عن حقه في امتلاك كتاب يقرأ فيه، وعند ذهاب هؤلاء الأطفال إلى المدارس الرسمية تلاحقهم الأعين، لتتحقق مما أُشيع عن اللاجئين بأن لهم ذيول، وكأن من أسكنهم، ومن أطلق هذه الشائعات، يظن أن اللاجئين هم عبارة عن بقايا اليهود المستقرين في العراق، لا الفلسطينيين النازحين قسرًا إليها.

ويستعرض الراوي مظاهر هذه الغربة والاغتراب، من خلال الاشتباك اللساني الذي عدد منه بعض المظاهر، فمثلًا عندما يذهب لشراء (ملح الليمون)، إذ إن صاحب البقالة ومن حوله لم يفهموا ما يريد إلا بعد لأي ومشقة، إذ كانت تعني عندهم (نيموندوزي)، يعلق الراوي على هذه الحادثة قائلًا:" هذا الاشتباك اللساني الأول، والذي سيجبرني على استخدام كلمة "نيموندوزي"

وآلاف الكلمات العراقية المتنوعة الأصول ما بين سومرية وأكدية ونجدية، لم يكن يسحق لهجتي ولساني فقط، بل وتجربتي أيضا، وقدراتي التعبيرية" (45).

وكذلك يستعرض الراوي التفسيرات التي صاحبت الغزو العراقي للكويت، مبديًا أسفه وصدمته مما يسمع، فأستاذ فلسفة التاريخ، يجد أن هناك حتمية تاريخية من التهام دولة كبرى لدولة صغيرة تعتبر عبئًا على التاريخ، وهذا الكلام أورده الراوي ليقول رأيه الحقيقي في مسألة فلسطين، والتي تعتبر في هذا الموقف مشابهة للكويت، فالدولتين الآن محتلتين، والاحتلال مرفوض مهما كانت أسبابه ومبرراته، ومهما كان هذا المحتل أجنبيًا أو عربيًا، فيقول:" أنا كفلسطيني أقول لكم دعوا فلسطين جانبًا لم أعد أريدها. السوط الذي جلدتم به كل الشعوب العربية، وأهنتموها وأفقدتموها كرامتها وحريتها .. وستعود فلسطين، أما هذه الأكاذيب، وأما هذه الأوراق التي لعبتها كل الدكتاتوريات العربية على طاولة مطامعها ومغامراتها فلست مستعدا لتصديقها" (46).

واستكمالًا لهذه الفكرة، وهي أن حرية الشعوب العربية، هي الطريق إلى تحرير فلسطين، كأنما الروائي يتنبأ بما حدث بعد خمسة عشر عامًا، وهو ما يحدث الآن من ثورات عربية، أعطت للشعوب حريتها فارتفعت قضية فلسطين لتصبح قضيتهم الأولى مرة أخرى، لكن بوعي مختلف عما كان سابقًا.

ويؤكد الراوي فكرته، برفض الاحتلال مهما كان هذا المحتل، و فيتذكر فلسطين حين غزا العراقي الكويت، ويرفض أي تبرير لهذا الغزو، سواء كانت الحتمية التاريخية التي قال بها أستاذ التاريخ، أم نغمة تحرير فلسطين التي ضاعت، أو تأكد ضياعها بعد الغزو.

" كان المحتلون يجردون الأشياء من حواسها وثقلها، ومعها نحن أيضًا نتجرد من حسيتنا، ونحوّل إلى ألفاظ، كل العالم يكاد يتحوّل إلى رغوة ألفاظ بلا مدلول. ولعل هذا الإصرار على محو الأشياء والناس والشجر والشوارع والذكريات لهو فعل الاغتصاب والاستبداد مذ كانا، هما لا يتعاملان مع المدلول، إنهما يمحوانه. فهو الوحيد الذي يعرّي تجريدية اللفظ وخواءه ولا معناه ... أسماء ... وأسماء ... وأسماء بلا مسميات. هذا هو عالم الدكتاتورية؛ هذا هو العبث في أصفى معانيه" (47).

وأخيرًا، فإن رواية "نص اللاجئ" فتحت الجرح الفلسطيني، ووضعت فيه الملح، لما عرضته من معاناة للاجئ الفلسطيني، من خلال معاناته اليومية، وتشرده الدائم، حتى وهو في المنافي، وأختم هذا البحث بفقرة من الرواية تلخص كل تاريخ اللاجئ الفلسطيني، حيث يقول الراوي:" قبل ما يقارب الأربعين عامًا حُشرنا في شاحنات الجيش العراقي المنسحب من "جنين"، وأخذونا شرقًا على هذا الطريق الصحراوي نفسه، والذي سيعبره رجال "غسان كنفاني" لاحقًا هاربين من مخيمات شرقي الأردن، هذا الطريق نفسه الذي عبرناه أطفالًا وكان أمامنا كما أتخيل أفق ما على الأقل، أفق الوعد بالعودة بعد شهر أو شهرين. ولكننا كبرنا من دون أن نشعر. وها أنا أعود على الطريق نفسه بعد ما يقارب الأربعين عامًا، مشردًا مرة أخرى، ولكن ما أمامي

الآن جدار مسدود. لقد أغلق الغزو العراقي للكويت الأفق أمام "اللاجئ"، وأكمل الدائرة التي بدأت على سفوح الكرمل باقتلاع الفلسطينيين من بيوتهم وقراهم وإلقائهم في المعازل والمعسكرات وتحت كل الشموس، بأن جردهم من مصداقيتهم، وحولهم إلى مجرد "متعاونين" مع الاحتلال" (48).

وهكذا تكتمل دائرة مأساة اللاجئين الذين ما زالوا يعانون النسيان والإهمال، حتى من المؤسسات التي ترعاهم، والتي تدافع عنهم، فلم يبقَ أمامهم إلا الانتظار، "أليس الصبح بقريب".

الهوامش:

(1) امبرتو إيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، (تر) د. أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص13.

(2) برونوين ماتن، وفليزيتاس رينجهام: معجم مطلحات السميوطيقا، (تر) عابد خزندار، (مر) محمد بريري، المركز القومي للترجمة، وزارة الثقافة ـــ القاهرة، 2008، ص18.

(3) سيزا قاسم، ونصر حامد ابو زيد (إشراف): أنطمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، دار إلياس العصرية، القاهرة، 1986، ص10،11.

(4) المرجع السابق: ص41.

(5) المرجع السابق: ص 148.

(6) نبيلة إبراهيم: المفارقة، فصول، م 7 ، ع (3،4)، سبتمبر 1987، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987م.

(7) وليد منير: جدلية اللغة والحدث في الدراما الشعرية الحديثة، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م.

(8) محمد الأسعد: نص اللاجئ، ص2،3.

(9) نبيلة إبراهيم: مرجع سابق، ص132.

(10) الرواية: ص12.

(11) الرواية: ص14.

(12) نبيلة إبراهيم: مرجع سابق، ص 134،133.

(13) الرواية: ص 48.

(14) نبيلة إبراهيم: مرجع سابق، ص139.

(15) الرواية: ص 42.

(16) د.سي.ميوميك: المفارقة وصفاتها، موسوعة المصطلح النقدي م4، (تر) عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد،1991م ، ص49.

(17) الرواية: ص14.

(18) الرواية: ص 5.

(19) الرواية: ص6.

(20) الرواية: ص6.

(21) محمد السرغيني: محاضرات في السيميولوجيا، سلسلة الدراسات النقدية (6)، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1987م.

(22) معجم مصطلحات السميوطيقا: ص 18،19.

(23) الرواية: ص16.

(24) الرواية: ص8.

(25) الرواية: ص 5.

(26) الروية: ص 38.

(27) الرواية: ص 44.

(28) الرواية: ص 5.

(29)الرواية: ص 8.

(30)الرواية: ص 3.

(31)الرواية: ص4.

(32)الرواية: ص5.

(33) الرواية: ص 6.

(34) الرواية: ص6.

(35)الرواية: ص37.

(36) الرواية: ص3.

(37) الرواية: ص37.

(38) الرواية: ص3.

(39) الرواية: ص5.

(40) الرواية: ص7.

(41) الرواية: ص 50.

(42) الرواية: ص24،25.

(43) الرواية: ص 15.

(44) الرواية: ص15.

(45) الرواية: ص14.

(46) الرواية: ص 28.

(47) الرواية: ص 39.

مصدر البحث:

ـ محمد الأسعد: نص اللاجئ، دار العصور الحديثة، القاهرة، 1996.

المراجع:

ـ امبرتو إيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، (تر) د. أحمد الصمعي، مركز دراسات الوحدة العربية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص13.

ـ برونوين ماتن، وفليزيتاس رينجهام: معجم مطلحات السميوطيقا، (تر) عابد خزندار، (مر) محمد بريري، المركز القومي للترجمة، وزارة الثقافة ـ القاهرة، 2008، ص18.

ـ د.سي.ميوميك: المفارقة وصفاتها، موسوعة المصطلح النقدي م4، (تر) عبد الواحد لؤلؤة، دار الرشيد، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد،1991م ، ص49.

ـ سيزا قاسم، ونصر حامد ابو زيد (إشراف): أنطمة العلامات في اللغة والأدب والثقافة، دار إلياس العصرية، القاهرة، 1986، ص10،11.

ـ محمد السرغيني: محاضرات في السيميولوجيا، سلسلة الدراسات النقدية (6)، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1987م.

ـ نبيلة إبراهيم: المفارقة، فصول، م 7 ، ع (3،4)، سبتمبر 1987، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987م.

ـ وليد منير: جدلية اللغة والحدث في الدراما الشعرية الحديثة، سلسلة دراسات أدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م.